الشاعرين فى ألفاظهما بجانب الوزن الذى اختاراه ، فتكرار حرف الباء فى بيت أبى الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلية ووضوحا ، وتكرار كلمتى الهضب والحزون فى بيت ابن هانىء يوحى إلى المخيلة تتابع الهضاب والروابى أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الانسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة إلى ربوة . ويكاد البيت يعرض أمامك شريطاً سينمائيا متحركا ، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعته ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مغازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

وقول ابن حديس :

وراقصة لفظت رجلهـــا حساب يد نقرت طارها

وقول المتنبى :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

فى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تلفح وجوهنا وتتمثلها تضرب جوانب الصخور ؛ وفى بيت الصقلى تتمثل حركة الراقصة السريعة الخاطفة ؛ وفى البيت الثالث تتمثل المتنبى على ظهر ناقته وهى تخالف بين أظلافها ممعنة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب الحركة واندفاعها ، على حين يمتاز بحر الخفيف بالتؤدة وزنة الحزن ، مما يجعله أليق البحور بالمراثى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب سيماء الوقار والشجن التى تتسم بها دالية المعرى المشهورة التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد

وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتويا على بدائع من الوصف ، هى غذاء اللب ومتاع الخيال ؛ بيد أن آثارها فى الأدب الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعددا ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ، ووسائلها أكثر عددا واختلافا ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصرا بها وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعا إلى الجهود المتبصر الواعى ، بجانب الطبع الصادق الموانى على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت بعض أمثلته راجعا فى أكثر الأحيان إلى عفو الخاطر وهداية البديهة ، وما ذاك إلا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفا على فنهم ، وتفرغا لأدبهم ، على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعريتهم به أولى

فخرى أبو السعود

٨٠٤٧

ثورة دجـــلة

للأستاذ على الطنطاوى

« ازدادت دجلة يومي الاربعاء والخميس ٣ ، ٤ صفر ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد عرضة للغرق بين كل لحظة وأخرى ، وسبق الناس كلهم للعمل على إقامة السدود ، ولم تنمض فى بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شىء عظيم ... »

كانت تجرى فى الوادى حالمة سكرى ، غارقة فى بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التى تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء ، تخطفها منها فى غفلة من الطبيعة ، فلا يبصرها إلا الشفق الذى يطل من نافذة الأفق يرميها بنظرة الكاشح الحاشد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الخجل . وتغمض عينيها من الحياء ثم تسرع فى جريها ...

وكانت تتلقى بين ذراعيها العاشقين المدلهين ، كلما دجا الليل وأطفىء مصباح الكون ، وهم فى الزوارق ذوات الأجنحة البيض التى تشبه قلوبهم فى بياضها وخفقانها ، فتحدب عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنحهم الخلوة الحلوة الآمنة ، تترع نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغيبوا عن الوجود فى حلم فاتن بعيد ...

وكانت تغضى عن هذا النخيل العاشق ، وقد تعانق كل زوجين منه ، وتلامسا بالشفاه ، واستسلما إلى الغيبة الهنيئة ، وعن هذه القصور التى تفيات ظلاله ، سكرى بخمرة الجمال ، قد ضمت احناءها على حياة لذة وادعة ، ملؤها الحب ...

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته ...

* * *

وكنت أذهب كل مساء ، إلى جسر مود ، انحدر إليه من الرصافة ، أمشى فى طريق ضيق ، كأنى أهبط وادياً من أودية بلادى الحبيبة ، ثم أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فاسلك شوارع الضالحية ، حتى أصل إلى المطار ... حيث أبقى ساعة شاخصا إلى الأفق البعيد أتبصر فيه طيف موطنى الأصغر(١) وأتحسس نسمه فأشم فيه شذا الغوطة ، وانشق ريا نشرها العطر ، وعرف آسها ونسرينها ، وفلها وياسمينها ، وزنبقها ونرجسها ... حتى إذا قضيت

(١) أما موطنى الاكبر ، وموطن كل مسلم ، فكل بلد يقول أهله ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، سواء لدى أقالوها بالعربية أم بأى لسان

من ذلك وطراً ، عدت وقد خلا الجسر ، فخبيت دجلة ، وصببت فى أذنيها آلامى وأحزانى ، واستمنحتها الراحة والاطمئنان ، ثم مضيت إلى وكرى المنعزل ، فى « الأعظمية » بنفس هادئة كدجلة مطمئنة كاطمئنانها . . .

* * *

وذهبت فى مساء الأمس ، كما كنت أذهب ، فاذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا الجسر الذى كان واديا ننحدر إليه ، قد أمسى جبلا نتسلقه ، وصار أعلى من الشارع وقد كان تحته ، وإذا الناس يقبلون عليه ، فأقبلت معهم وعلى وجهى من الدهشة والحيرة مثل ماعلى وجوههم من الروعة والفزع ، ونظرت فاذا النهر الذى كان يجرى فى الأعماق هادئا متطامنا حالما ، يبدو كأنه صفحة المرآة ، لاتنداح عليه دائرة ، ولاتموج فيه موجة ، قد علا وارتفع وعاد ثائراً هائجاً فضاحا ، له هدير ودردرة ، قد علاه موج كالروابى . . . وإذا هو قد نسى سنه ووقاره . وأضاع حلمه وعلمه ، ورجع شابا مجنونا أهوج ، يقفز ويصرخ ، ويقرع الأرض بقدميه ، ويضرب بقبضته القويتين المخيفتين أبنية الشاطىء الآمن ، ويعبث بهذه الكرات الحديدية الضخمة ، التى أقيمت لتثبيت الجسر العائم والتى ترجح بالقناطير ، وتزن الصخور الجلاميد ، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبى كرته . . . وإذا هو مرعب حقا ، يدخل الروع على أجلد الرجال . . .

وكانت الوجوه كالحة ، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد والماء يرتفع ، لم يبق بينه وبين الشاطىء إلا شبر واحد . لقد بلغ عمق المياه خمسة وثلاثين مترا وعشرين معشارا . . . وخمسين . . . إنه لايزال يرتفع . . . لقد صاقب الشاطىء . . . إن بغداد فى خطر !

* * *

وطارت كلمة الخطر على الألسنة ، ففزع الشعب ، واهتمت الحكومة ، ووضع قانون المساعدة الالزامية ، فابتدر الناس الشاطىء ، واستبقوا إلى العمل . . . يقيمون السدود ، ويضعون للمجنون القيود ، ولكن المجنون لايبالى بقيد الذباب . . . إنه يقتل أمة منها بضربة واحدة . . .

إن النمر(١) يقفز فى حبسه ويثب ، لقد جن : إنه يريد أن يخرج فينبعث فى الأرض ، يريد أن يمشى إلى هذه الجنات الظليلة ، التى طالما أمدها بالحياة ، وحمل إليها النعمة ، ليحمل إليها الموت !

بدأ الصراع المهول بين الطبيعة والانسان . . . وامسى المساء على بغداد وهى قائمة على قدم وساق ، ليس فيها من يبيع أو يشترى أو يلهو أو يلعب ، أو يطعم أو يشرب . . . ليس لها إلا غاية واحدة ، هى النجاة من الغرق . . .

وكنت قد بلغت منزلى فصعدت السطح ، فانحسرت أمامى صفحة دجلة ، وهى تلتوى من حول الأعظمية كالأفعى ، تطيف بها كالقضاء النازل ، وقد استرخت عند المنحنى وتمددت على الحقول والدور التى هجرها أهلوها ، فصار عرضها أكثر من ألفى متر . . . وصارت بحراً خضما ، ولكنه يركض دفاعا يحمل فى طياته الموت والغرق والخراب ، وكانت حمرة الشفق تخالط الماء ، فيلتهب فيبدو كأنه أتون مستعر ، أو كأنه جهنم الحمراء . . .

وبسط الليل ثوبه الأسود على الدنيا ، فأخفى تحته ثمانية وأربعين ألف شاب ، يشتغلون لينقذوا بغداد من الغرق المحقق ، من ورائهم أربعمائة ألف قلب ، تحوطهم بالرعاية والحب . . .

واستمر الصراع المهول . . .

* * *

وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم فى يوم القيامة ؛ غير أن المرء فى يوم القيامة يجد مايشغله عن أمه وبنيه ، وصاحبته وأخيه ؛ وهنا أم حائرة موله قد ضاع منها ولدها فى وسط الزحمة فهى تعدو وتصيح من غير وعى لاتدرى أهو فى الأحياء ، أم لفترسه هذا النمر الجبار . . . وهنا بنت تفتش عن أمها ، وولد ينادى أخاه ، وأسرة قد هيأت متاعها ووقفت على باب الدار تنظر الساعة الرهيبة التى يطغى فيها الماء فيدك أدوارها وما فيها ويدعها فقيرة مسكينة ، مسكنها الشارع ... وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون ، يتسابقون إلى الخطر . . . وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت ، والجنود يعملون فى كل مكان بهمم الأسود . . .

كان الصراخ يملأ الجو : هتاف الشباب ، وأنغام الجند ، وصياح النساء ، ونداء الأولاد ، والنهر فوق ذلك كله يهدر هديره المستمر المرعب ، فيكون له فى هذا الليل دوى مخيف ، والحركة متصلة ، والشوارع ممتلئة بالناس . . .

ولكن السلامة توالت . ووقف النهر عن الارتفاع ، ولم يقع الثبق (أى الكسر) الذى كانوا يخشونه ، وكان قد تصرم الهزيع الأول من الليل ، فأمن الناس ، وتفرقوا إلا قليلا قاموا يحرسون النهر ، ودخلوا بيوتهم ، وولجت دارى أستريح ، فما لبثت أن ذهبت فى رقدة عميقة .

* * *

ورأيت المياه تنساب فى كل جهة ، تغنى أغنية الرعب ، تقتلع البيوت ثم تلقى بها إلى بعيد ، وتلج فى باطن الأرض ثم تقلبها بما

(١) اسم دجلة بالفرنسية (Tigre) وبالانجليزية (تايجرس) ومعناها كلها . . . النمر !

عليها ، وتصعد فى الجو ، ثم تنزل كالبلاء المصبوب . . ثم انصدع صدع عظيم وهويت إلى قعر الهاوية ، وكان حولى مئات من النمور والفهود والأفاعى ، وسمعت رعداً شديداً ، ورأيت برقاً ومطراً ، ثم عادت السيول تجرى ، تدحرج آلافا من الصخور .

. . . ففتحت عينى . . وإذا الحلم حقيقة ، وإذا الصيحة فى الحى والقامة قد قامت ، وخفارات الحراس ، وأبواق الجنود تصدح باستمرار ، والنساء يولولن ويعدون ، والأطفال تبكى وتركض فى كل مكان ، والرجال تصيح طالبة النجدة ؛ وتبينت وسط الضجة الكلمة الرهيبة : كسر النهر . . النهر انكسر !

وتدفق سيل العرم !

* * *

إن هذا النهر الذى جاء من قمم الأناضول الشاهقة وسلك على السهول الممرعة ، والصحارى المجدبة ، قد تعب من سيره الطويل المضنى . فجاء يستريح على هذه الحقول التى زخرفها الربيع وأزهر فيها النارنج ، وفتح الورد والقرنفل والفل ، وانرع نسيمها العطر . فحيل ذلك كله إلى صحراء قاحلة . . جاء يغرس هذه الحياة الرخية السعيدة بزور اليتم والفقر والنكد .

- ولكن الذنب علينا ؛ لو أنا أنشأنا له ماوى يستريح فيه وسريراً ينام عليه ، لهجع فيه إلى أيام الصيف ، ثم لخرج بالبركة واليمن إلى أراضينا وبلادنا !

* * *

تركت الدار وخرجت أسبح فى هذا الخضم من الناس ، أدفع النساء والشيوخ والشباب ، لأصل إلى الشاطىء فأعمل عملا ولست أدرى ما ذا أعمل ؟ ولست أحسن السباحة ، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابى ، ولم أفكر فى شىء من ذلك لأن الانسان لا يفكر فى ساعة الخطر ، وإنما يعمل . . فلما وقفت على الصدع هالنى وارعبنى أن النمر قد أفلت من القفص . وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب ، كاشراً عن أنيابه يزمجر ويزأر ، ويبرق ويرعد

إن الماء يندفع إلى العلاء بقوة الديناميت ، ثم ينزل على الحقول ، فمضى فيها مكتسحاً كل شىء فى طريقه ، يقتلع الأشجار الضخمة ، ويقذف بها كأنما هى عيدان الكبريت ، وينسف البيوت كأنما هى علب من الورق ، ويتدفق من كل جهة . . . وقد ابتلع صوته المدوى كل ضجة ، وملأ الأسماع بترتيلة الموت المستمرة . . . وكان لمنظره فى ظلمة الليل صورة لا توصف . .

وأقدم الناس ، يسبقون الماء ليقيموا فى وجهه السدود ، ليقيدوا هذا النمر الهائج بحمية منقطعة النظير ، وحماسة نادرة المثال . . . وأقدمت أخوض هذه اللجة من الناس ، لأصل إلى هذه اللجة الطامية من الماء أمشى فى ظلمتين : ظلمة هذا الحشد المزدحم . وظلمة الليل البهيم ، أتعرض لرهبتين : رهبة الليل وسواده ، والسيل واندفاعه . أصغى إلى لحنين : لحن الروع على ألسنة الناس ، ولحن الهول على لسان النهر . . .

ولم أخش شيئاً . . .

إنها ساعة الخطر . . .

بوركت ياساعة الخطر ! أنت لحظة الانسانية . أنت التى تورق فيك أغصان الحب ، ويزهر فيك الاخلاص ، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين . قد خرجوا من أطماعهم ومات فى نفوسهم الحسد والبغضاء وعاش فيها الحب والتضحية والاخلاص والوئام . .

* * *

تقدمت إلى الأمام ولكنى لم أصل إلى شىء ، لأن الناس كانوا يستبقون العمل ، ويهرعون إلى الموت ، كأن العمل غنيمة ، والموت وليمة . . وكانوا يصرخون صراخ الحية . ويهتفون باسم الوطن والمروءة والشجاعة . . ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع ، والماء يزداد اندفاعاً ، فكلت الأيدى النشيطة ، وجمدت الصيحات والأناشيد على الشفاه . وخامر الناس اليأس . .

هنالك انتبهت فاذا أنا أسمع النشيد الذى ارتقبه وأصبوا إليه ، ليس نشيد الوطن والمروءة ولكنه أجل وأقوى ، النشيد الذى له قوة السيل ، وعظمة البحر ، وبهاء الشمس ، وصلادة الصخور . النشيد الذى لا يقوم له شىء ، النشيد الذى كان أجدادنا يهتفون به ، كلما حاقت بهم ضجة فيدكون به كل حصن ويكتسحون كل عدد ، ويخلصون من كل خطر . النشيد الذى يحيل الجبان بطلا . واليأس أملا ، والطفل رجلا . .

ذلك هو نشيد الرجال والنساء والأطفال بصوت واحد يجرى على قرع الطبل ، فيشق الليل ، ويخشع له كل من يسمعه حتى النخيل والحقول ، والسحاب والنجوم ، وهذا النمر الثائر

الله أكبر - الله أكبر - لا إله الا الله

الله أكبر - الله أكبر - ولله الحمد

* * *

وبدأ الصراع كرة ثانية . .

وأقبلوا على العمل بهمم لا تثنى ، وقلوب لا تلين ، وسواعد لا تكل . .

وصب النشيد فى عروقهم روح الظفر . . .

فظفروا . . .

* * *

وعند ما كانت الشمس تطبع أول قبلاتها على جبين الكون كان الموكب الظافر قد رجع ، يحمل أجل أزهار الرياض التى أنقذها وحماها من الغرق . . . يمشى فيه الجند والطلاب ، بصفوف